مبحث علمي تأصيلي:
" الرؤوس الجهال وظهورهم عند قبض العلماء ...."

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي رفع بالعلم أقوامًا وجعلهم للناس أئمة يُهتدى بهم في الظلمات، وأبقى بهم منار الدين واضحًا لمن تمسك بالهُدى والسنّة، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:
فإنّ العلم الشرعي هو ميراث النبوة، وأهله هم ورثة الأنبياء، يحملونه في كل عصر عدول هذه الأمة كما قال النبي ﷺ: ((يَحْمِلُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عُدولُه، يَنْفُونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين)) رواه البيهقي وغيره بسند صحيح.

فهؤلاء هم الذين يحفظ الله بهم دينه، ويذبّ عن شريعته، ويكشف بهم أباطيل الجهال والمبطلين.
غير أنّ السنن الإلهية جارية بأنّ العلم لا يُرفع من الأرض دفعة واحدة، وإنما يُقبض بقبض العلماء، فإذا قلّوا أو فُتنوا أو أُبعدوا، تصدّر الجهال وتكلم من لا علم عنده، فضلّوا وأضلّوا.
ومن هنا كان التحذير النبوي البليغ في قوله ﷺ:((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلّوا وأضلّوا.)).

فهذا المبحث -السلفي- يتناول معنى قبض العلماء، وصفات الرؤوس الجهال، وسبل النجاة من فتنهم، والجمع بين النصوص الواردة في هذا الباب، استرشادًا بأقوال الأئمة المحققين من سلف الأمة، ...
وهو باب من أهم أبواب حفظ الدين، إذ به يُعرف قدر العلماء الربانيين، ويُميَّز أهل العلم الراسخ من المتعالمين، ويُصان الدين من التحريف والانتحال، وما أقبح أثر الناس على الدين إذا تصدّر من ليس من أهله.

أولًا: في معنى الحديث وتأصيله
روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا)). قال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (1/194):[فيه التحذير من اتخاذ الجهال رؤوسًا، وأن ذلك من علامات الساعة، وأن سبب ضلال الناس ذهاب العلماء الراسخين الذين يُرجع إليهم في النوازل].
وقال النووي رحمه الله في شرح مسلم (16/223):
[المراد أن الجهال يُقَدَّمون ويتصدَّرون للفتيا والتعليم، فيضلّون الناس بجهلهم، لأن العلم لا يزول من الأرض دفعة، وإنما بقبض العلماء واحدًا بعد آخر]. فدلّ الحديث على أن زوال العلم الحقيقي يكون بفقد العلماء العاملين، فإذا ماتوا أو أُقصوا أو أُعرض عنهم، حلّ محلّهم الجهال، فكان ذلك من أعظم أسباب الفتن والانحرافات الفكرية والدينية لا بزوال الكتب، وأن أخطر آثار ذلك أن يتصدر الجهال فيُفتون بغير علم فيضلّون أنفسهم والناس.

ثانيًا: صفات الرؤوس الجهال
استقرأ العلماء صفات هؤلاء من نصوص الشرع وأقوال السلف، ومن أبرزها:
1- الجهل بالوحي: لا يملكون فهمًا صحيحًا للكتاب والسنة، وإنما يتكلمون بالعواطف أو الثقافة العامة.
2- الجرأة على الفتيا: كما قال ابن سيرين: [إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم].
3- اتباع الهوى والسياسة والواقع دون ضوابط شرعية، فيُبدّلون ويُزيّنون للناس الباطل.
4- التهريج والتهييج كما وصفهم الشيخ الفوزان – حفظه الله –، فهم يثيرون الناس بالخطابة والعاطفة لا بالعلم والفقه.
5- التصدر بغير تأهيل، يحبون الظهور ويزاحمون العلماء في المنابر والشهرة، ويزعمون فهم فقه الواقع وهم يجهلون فقه الوحي.

ثالثًا: متى يظهرون؟
ذكر الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص 252):[إذا قلّ العلماء وذهب أهل العلم بالكتاب والسنة، تصدّر من ليس بأهل، فكثر الخطأ والبدع والضلالات]، ولهذا فإن ظهور الرؤوس الجهال يكون في أزمنة قبض العلماء، وحين يقلّ أهل العلم الموثوقون، وحين يُعرض الناس عن اهل العلم الراسخون ولا يسمع لهم ، او تنفير الناس منهم ،
فيملأ الرؤوس الجهال الفراغ بالباطل والجهل والإضلال.

رابعًا: موقف العلماء الربانيين منهم
منهج السلف واضح في هذا الباب، وهو التحذير من الجهال كما قال ابن المبارك: [الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء], وكذلك الرد عليهم وبيان باطلهم نصحًا للأمة، كما فعل الأئمة مع أهل البدع والجهل، ومن ذلك تبيين صفات العلماء الحقيقيين ليُعرف من يُؤخذ عنه الدين، كما قال ابن سيرين: [كانوا لا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم]
قال العلامة الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:
[من أعظم البلاء اليوم أن يُقدَّم الجاهل فيُسمّى عالِمًا، وأن يُترك العالم الرباني فلا يُسمع له، وهذه من الفتن العظيمة التي حذّر منها النبي ﷺ].

خامسًا: الجمع بين حديث (اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا) وحديث (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين)
قال النووي رحمه الله في شرح مسلم (13/67):
[الجمع بين الحديثين أن قبض العلماء يكون في بعض البلدان أو الأزمنة، وأما الطائفة المنصورة فتبقى قائمة إلى قيام الساعة، قد يقل عددها أو يخفى مكانها، لكنها لا تنقطع بالكلية].
وقال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (13/293):
[لا يلزم من قبض العلم في بلد أو قطر أن لا تبقى طائفة على الحق في غيره، بل تبقى الأمة ظاهرة ما بقيت الطائفة المنصورة]
فالعلم لا ينقطع بالكلية من الأرض، ولكن يقلّ ويضعف ظهوره في بعض الأمصار، فيملأ الجهال الفراغ في تلك المواطن، بينما تبقى الطائفة المنصورة على السنة، وإن قلّ عددها.

سادسًا: سبيل النجاة وتجنب الرؤوس الجهال

1- لزوم العلماء الراسخين المعروفين بالسنة والتمسك بالوحي.

2.- طلب العلم من أهله الموثوقين بالإسناد والعقيدة.

3- ترك الجدال والقيـل والقال، قال ﷺ: ((هلك المتنطعون)).

4- التحذير من دعاة الفتنة والثقافة السياسية المحضة الذين لا يعرفون أحكام الله.

5- إحياء دروس العلم الشرعي لتُسدّ الثغرات قبل أن يتصدر الجهال.

إن فتنة الرؤوس الجهال من أعظم أسباب ضلال الأمم، ودواؤها يكون بالتمسك بالعلماء الربانيين والرجوع إلى الأصول الثلاثة المعصومة، من الوحيين الكتاب والسنة والإجماع اليقيني وهو سبيل المؤمنين في قوله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا[النساء: 115]، وينبغي أن يعلم أن الإجماع القطعي المذكور: هو إجماع السلف من أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم؛ لأن بعدهم كثر الاختلاف وانتشر في الأمة، كما نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه (العقيدة الواسطية)، وغيره من أهل العلم ، وهو المقصود من الاية الكريمة.

قال الإمام أحمد رحمه الله:[الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يُحتاج إليه بعدد الأنفاس.]، فالواجب على الأمة أن تحفظ مكانة العلماء وتمنع تصدّر الجهال، فإن ذهاب العلماء هو ذهاب النور، وظهور الجهال هو ظلمة الفتن.

وبعد هذا البيان، يتبيّن أن العلم هو روح الأمة، والعلماء هم أمناؤها وحُرّاسها، فإذا ماتوا أو أُقصوا أو أُعرض عنهم، حلّ محلّهم الجهال، فكان ذلك من أعظم أسباب الفتن والانحرافات الفكرية والدينية.

فالواجب على الأمة عامة، وعلى طلاب العلم خاصة، أن يُعظّموا مكانة العلماء الربانيين، وأن يلزموا غرزهم، ويتلقوا عنهم الدين، وأن يحذروا من التجرؤ على الفتيا والخوض في مسائل العلم بلا بصيرة، فإن من تكلم في دين الله بغير علم فقد تصدّر للضلالة، وكان سببًا في فتنة الأمة وإضلالها.

نسأل الله تعالى أن يُبقي في الأمة بقايا من العلماء الصادقين العاملين، ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وأن يجعلنا ممن يعرف لهم قدرهم، ويقتدي بهديهم، ويذب عنهم كما ذبّوا عن دين الله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

تنبيه لطيف في معنى (قبض العلماء) بين الحقيقة والمعنى المعنوي :

قد أجمع الشُّرّاح على أن المراد بقول النبي ﷺ:

((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء)).

هو موت العلماء، كما قرره ابن حجر والنووي وغيرهما، لأن العلم يذهب بذهاب حملته، فإذا ماتوا ضاع العلم الذي كانوا يُبلّغونه. إلا أن التدبّر في مقاصد الشرع وسير التاريخ يدلّ على أن قبض العلماء لا يقتصر على الموت الحسيّ، بل قد يقع قبضٌ معنويّ حين يُحال بين العلماء وبين أداء رسالتهم، أو يُضيَّق عليهم، أو يُسلب الناس الانتفاع بعلمهم، فيتحقق المقصود من الحديث من حيث الأثر وإن لم يموتوا بأجسادهم.

وقد ألمح إلى هذا المعنى عدد من الأئمة :
قال ابن القيم رحمه الله :
[العالم إذا سكت عن بيان الحق أو كتمه، أو داهن فيه، أو ترك البيان تقيةً أو مداراةً أو طمعًا فيما عند الناس، فقد سلب الله الأمة بركته، وكان ذلك من أعظم أسباب خفاء الحق، وطموس معالم الدين، وظهور الجهل والبدع والضلال.]. إعلام الموقعين، ج4، صـ260–261، دار ابن الجوزي

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله:
[قبض العلم لا يكون فقط بموت العلماء، بل قد يكون بإعراض الناس عنهم، أو تهميشهم، أو بتصدّر الجهال الذين يزاحمونهم، فحينها يقبض العلم وإن كان العلماء أحياء.] القول السديد في مقاصد التوحيد، صـ157، دار المعارف.

قول الشيخ الألباني رحمه الله
[قبض العلم يكون بموت العلماء، ولكن قد يتحقق قبضه أيضًا بإعراض الناس عنهم، وانشغالهم بأهل الجهل، فيكون قبضًا للأثر لا للذات.] سلسلة الهدى والنور، شريط رقم 693 (الشيخ الألباني)

قول العلامة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله
[وقد يُقبض العلم بترك الناس للعلماء، أو إعراضهم عنهم، أو طلبهم العلم من غير أهله، فيكون قبضًا للعلم من حيث الأثر لا من حيث الذات، لأن العلم وإن وُجد في العلماء إلا أنه لا يُنتفع به.] شرح رياض الصالحين، ج4، صـ487، دار الوطن.

وهذا الوجه يظهر جليًا في الفتن الكبرى التي مرت بها الأمة، كفتنة خلق القرآن، حين سُجن العلماء وسكت أكثرهم، حتى لم يثبت إلا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فكان ثباته سببًا في حفظ الدين ورفع البلاء.

وقد قال الذهبي في السير (11/231):
[كاد العلم أن يضمحل في تلك المدة، لولا أن الله ثبّت أحمد ومن جرى مجراه من العلماء الربانيين]
فدلّ ذلك كله على أن القبض المعنوي للعلماء قد يتحقق بتعطيل أثرهم أو حبسهم أو صرف الناس عنهم إلى رؤوس الجهال، وهو قبض في الحقيقة وإن اختلفت صورته.

والجمع بين المعنيين أن يقال إن قبض العلماء نوعان ، قبض حقيقي: بموتهم وذهاب أرواحهم.
وقبض معنوي: بذهاب أثرهم، أو إسكاتهم، أو إعراض الناس عنهم، أو إحلال الجهال محلهم.

وبذلك يكون الحديث نذيرًا للأمة في الحالين:
فيكون نذيرًا حين تفقد العلماء بموتهم، ونذيرًا حين تفقدهم بظلمهم أو إعراض الناس عنهم، فكلاهما قبض للعلم، وكلاهما سبب لظهور الرؤوس الجهال الذين يُضلّون ويُضلّون.
والله تعالى أعلم.